

بنى معمارية مستقيمة ذات اتجاه شمالي - جنوبي، ولا يوجد حولها حقائق زعمًا للمعطيات السطحية، لكن يبدو أنها بنيت متزامنة مع مجمعات القصور.

اكتسبت منذ العام ١٩٩٧ معارف إضافية حول بنية وبناء مقر الخليفة هشام، وذلك من خلال التصورات الجوية - فيزيائية. بالاعتماد على المغناطيسية (فلس المجال المغناطيسي) والأكرونيست (قياس مقاومة الأرض) أمكن التعرف على البنية الداخلية لمباني القصور وأقسام من الأبنية الملحقة. وبما يستلزم الاهتمام من الناحية المنهجية السؤال، كيف تتميز الأبنية المبنية من مواد مختلفة في هذا العرض. وكنتم التحاليل الجوية - فيزيائية يعهد إلى وضع نماذج قديمة للموقع، من أجل الحصول على قاعدة عريضة لتحليل التصورات السالبة/الوجهة (الجلدان أو الممرات أو الحفر). وبؤمل الحصول على حقائق حول البنية التحتية (دروب شوارع، تمديدات المياه والأبواب) لموقع القصور البالغة مساحته أربعة كيلومترات مربعة.

نفذت الدراسات الأولى في مجمعات القصور ٣ و ٤ و ٦، فظهرت حتى الآن في الجمع الجنوبي فقط ٤ بنى واضحة. وكان البناء محاطاً بسور مزدوج محصن بالأبراج. ويبدو أنه كان يغلق بواب داخلي. يُنفذ منه أيضاً إلى الأبراج. ظهرت في الأبراج الزاوية معارب كبيرة، يمكن أن تكون سقاطات من خلال الفتحات في جدرانها. يقع مدخل البناء في الجانب الجنوبي، وربما كانت على جوانبه أبراج صغيرة. وكان هناك فناء متطاول إلى الجنوب والشمال محاط بالقاعات، وربما كانت توجد في جانبه الشرقي حفرة بئر. تتصل بالمبنى من الجهة الشرقية الملاحي، ويبدو أنها كانت محاطة بأسوار من اللبن. وتظهر على أجزاء من سطوحها العلوية حواف طلاء رقيقة، وتشمل القاعات الداخلية والأبنية.

بالمقابل لم يظهر مجسم القصر ٦ في العرض الجوي - فيزيائي بشكل واضح، رغم ظهور بنية واضحة له على سطح الأرض، والتي أمكن تسجيلها في غودج الموقع الرقمي. وربما كان محصناً بأبراج مستطيلة في الجهة الغربية والشرقية. وكان يغلق في الجانب الجنوبي أيضاً. نلاحظ في الجهات الثلاث من المبنى عدا الغرب آثار أبنية مختلفة. فيها فناء متطاول يقع في القسم الغربي من المبنى ويفتحه إلى الشمال. وتظهر بشكل جلي الملاحق التابعة لهذا الجمع التي بنيت، على ما يبدو، من المحصنة الجصية المحلية المعتادة. وقد أمكن التعرف فيها على مجموعات من القاعات المرعبة المتساوية المساحة، أقيمت حول الأبنية. دوروته زاك

دمشق

شواهد مدنية في مرحلة التحول

مسح للتاريخ العمراني العشوائي المتأخر (١٨٠٨-١٩١٨)

السورول عن المشروع: المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية، معهد الآثار الألماني وجمعية الأبحاث الألمانية.

ملتهو المشروع: شتيهان فيهر

مدة المشروع: منذ ١٩٩٧

كانت دمشق، عاصمة سورية، على مدى آلاف السنين، المركز الثقافي والسياسي لبلاد الشام (سورية الطليعية)، ومع استمرار هذه المدينة، فإن الفصل الأحدث من تاريخها الطويل تعرض لحصول سريع. كانت بداية هذا التحول في القرن التاسع عشر، تغير إبان مجرياته الوجه المدني لدمشق بشكل جوهري. وهي مرحلة عرفت في التاريخ الإسلامي بالبحث عن إصلاحات واسعة لصيغة حياة جديدة. تجدد هذه العملية زمنياً والفترة المبحوثة هنا أيضاً في عهود حكومات آخر أربعة سلاطين عثمانيين مشهورين والأكثر الفتيان، أي في الـ ١١٠ سنوات الأخيرة من السيادة العثمانية على سورية منذ ١٨٠٨ وحتى ١٩١٨. بدأت منذ ظهور حكومة محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) الحجازة لإضعاف القوى المحلية ووضع الولايات تحت المراقبة المركزية. انطلاقاً من الإصلاحات في الولايات في ١٨٦٤ و ١٨٧١ خلت الترتيبات الإدارية الجديدة في إطار التنظيمات الإصلاحية الكبرى (١٨٣٩، ١٨٥٦، ١٨٦٦) ملاحها المتنامية في وجه المدينة. فشلت دمشق، وبخاصة في عهد السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ - ١٩٠٩) بتحويل جذري مسدي واجتماعي. وفي ١٩١٨ لقي الفصل العثماني في التاريخ الدمشقي نهايته. لا يستطيع المرء حالياً أن يحسب بدقة التغيرات التي طرأت على المدينة والجمع في الفترة ما بين ١٨٠٨ و ١٩١٨. فقد تكاملت في سائر قطاعات الحياة الخاصة والعامة أشكال جديدة متنامية. فالبنى التقليدية تعرضت إما للتحديث، من خلال ما حل مكانها من موانئ حديثة، أو اصطفت بملاحم عناصر جديدة في التركيبة المدنية. أما العمارة كمنظر طبيعي للتحول التاريخي، فإنها تقدم مثلاً لتحديد أبعاد الانقلاب المدني والاجتماعي.

وصف المشروع

إن قاعدة هذا المشروع هي مسح للعمارة العثمانية في دمشق (١٥١٧ - ١٩١٨)، فوثقت الأبنية المناسبة بالتصوير ميدانياً، وبنيت في بطاقات، وصنفت - بحسب الإمكانيات - زمنياً. ركز - بخاصة - من ناحية الموضوع على تطور أشكال الزخرفة المفرقة، على سبيل المثال القاشاني المعماري العشوائي المحلي وزخرفة المعجونة الملونة والرسم الجدارية. وشكل التاريخ العمراني العشوائي المتأخر مركز التقبل في المسح، لتقدم علة متكاملة - بما أمكن - حول التطور المدني في المدينة ومبانيها في القرنين التاسع عشر والعشرين. إلى جانب البحث الميداني الوثائقي التفصيلي عمداً إلى دراسة النسيج المعماري القائم بالاعتماد على خطط تاريخية وصور للندن، والمخلفات الأدبية للشهود المعاصرين المتفرقين (ذكريات عربية، دليل وأخبار الرحلات الأوروبية وسير ذاتية وتصويرية) وكذلك إعادة تصميم الأبنية المفقودة من خلال مسودات أرشيفية مختلفة.

بينها النصب الفكرية العامة، التي كما عموذ البرق الشهير في ساحة المرحلة وجدت مدخلا لها في العمارة المدنية بدمشق. أما الأبنية الحجرية المنفردة كالسرايا أو قيادة الشرطة (بني كلاهما ١٨٩٩/١٩٠٠) فتتلامح وأبنية التنظيمات الاستطوبولي، وهي بدورها ترجمة لأشكال معمارية أورورية. في حين أن الأبنية الإدارية الأخرى الأقدم قليلاً زمنياً (مثلاً المحكمة من عام ١٨٨٣ ودائرة البريد والبرق ١٨٧٨/٨٠) استمدت من العمارة السكنية الأناضولية (كورناك) في المخطط وفي تشكيل الواجهات. وهذا ينطبق على البيوت السكنية أيضاً، التي أنشئت في المناطق السكنية الجديدة، وكذلك في المدينة القديمة في مستهل القرن الحالي أيضاً.

٢- السوق

يتميز السوق في دمشق - بشكل أساسي - عن الكثير من الأحياء التجارية التقليدية الأخرى في الشرق الأدنى. فما أقدم أساساً من قبل العثمانيين اعتباراً من القرن السادس عشر، أصبح شاهداً اعتباراً من أواخر القرن التاسع عشر على تحول بنوي ضخيم، فاخترفت الأسواق الكبرى بأرقة ضيقة (سوق الحميدية وسوق مدحت باشا)، ووسّع بعضها الآخر (سوق البرورية)، وأعيد تكويره (سوق الخسطين). ومن بين السبعين مبنى تجارياً مدروساً يعود أكثر من النصف من شكله الحالي إلى مستهل القرن الحالي.

تمت إعادة تكوين المركز التجاري للمدينة على صعيدين، أولهما أنه ظهر في الأسواق الكبرى تصميم من صنف جديد للواجهات والشوارع والدكاكين، تذكر بصالات العرض، التي أنشئت في أوروبا في الوقت ذاته. فالدكاكين لم تعد محجزة بمصاطب البيع، التي نمت ١٨٦٤ وتحتل الآن أن تدور الحواشيات ذات الحوائز الزجاجية المشتري للدخول. فشمكت الواجهات ذات الطبقين غالباً، بتصميمها الكلاسيكي الجديد، شوارع البيع الحديثة وبشكل موحد. وثانيهما أنه ظهر في السوق تحول في البنية التحتية، تمثل في التعريف الجزئي الجديد لنماذج الأبنية المنفردة أيضاً. من خلال الانجرافات في الاقتصاد العالمي، وكذلك الثورة في شؤون المواصلات والنقل ظهرت متطلبات جديدة في تجهيزات الأسواق. فنشأت في مركز المدينة في ساحة المرحلة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأول مرة فنادق، كارت مباشر للخدمات، وتولت القيام بمهامها كمرآة تجارية مع وظيفة البيت. بالتقابل تحولت المحلات في داخل المدينة، وكذلك المحاسنات إلى منابر صرفة، ومعامل ومستودعات، وكتبت منتظمة لم تعد تقام في أواخر القرن التاسع عشر خانات جديدة، وإنما وكالات، استخدمت كمتاجر بحتة. ووجدت بنوك من صنف جديد وأبنية تجارية كبرى طريقها إلى المركز الاقتصادي للمدينة، في حين أخذت تختفي المحاسنات والمدارس والمساجد من هذا النطاق بشكل متزايد. إن هذا التطور للتلاحق للمنشآت التقليدية "المشرقية النموذجية" في السوق كان مناسبة للنقاش حول أجوبة ذاتية متطورة على المنشآت الحديثة. ودون إنكار للبنى التنامية، فإنه جرت هنا عملية بحث في الموحود من الإرث العمراني الحضاري الدالي عن صيغ جديدة وحديثة، وأمكن إيجادها. بالإضافة إلى ذلك أدى المسح للسوق إلى جعل المذهب الشائع حول المظاهر المدنية للسوق نسبياً. فالمرآة التجارية ليس مركزاً للتجارة فقط. وكذلك فإن الفصل الصارم الملل غالباً بين المناطق السكنية - والتجارية كسمة مميزة "للمدينة الإسلامية" لم يعد قائماً في حالة دمشق.

مسار المشروع والتناجح

أدى النمو السكاني والمديني الشديد في دمشق زمت المدينة من تعداد مقرر - ٩٠.٠٠٠ نسمة نهاية القرن الثامن عشر، إلى ٢٠٠.٠٠٠ نسمة إبان الحرب العالمية الأولى إلى تغير في الطبيعة المدنية الممتدة. فإلى جانب ملاحظة الظواهر المدنية (مثلاً البنية التحتية أو نمو الأحياء المنفردة) اعتُمد على دراسة الأسس المدنية الثلاثة بشكل رئيسي:

- ١- مركز المدينة الجديد في ساحة المرحلة.
- ٢- التحول العمراني في المركز التجاري للمدينة (السوق)
- ٣- البيوت السكنية ومنشؤها.

١- ساحة المرحلة

بالطبع لم يقتصر التحول في العوامل الإدارية والسياسية والاقتصادية الشاملة على تركيبة المجتمع لوحدها، وإنما وجد له تعبيراً في التشكل المدني لدمشق. فقد تطلبت المؤسسات الإدارية الجديدة والتنظيمات مساحات جديدة حتماً. إن ساحة المرحلة، كمركز للمدينة مقام حراج السور في السرج الأخضر، هي إحدى النتائج الهامة لهذا التطور. فطور بخاصة منذ إصلاحات الولايات في ١٨٦٤ و ١٨١٧ مركز مدينة جديد بدءاً من تغطية بردي ١٨٦٦، وهو التاريخ الفعلي لإنشاء هذه الساحة. بصرف النظر عن أبنية قديمة أقدم، نشأت متعاقبة ضمن فترة وجيزة فيما بينها، أبنية الإدارة (السرايا)، والشرطة، والبلدية والحكمة الخ...، ومباني الحياة العامة (مسرح، فنادق، مقاهي وحانات عامة) وكذلك منشآت البنية التحتية (شوارع للحافلات ولسكك الحديد، وحسور وشوارع). وإذا ما تأمل المرء ١١٣ إجراء معمارياً موزعاً في قطاع مركز المدينة الجديد، يدرك الأسس التالية: إن قسماً من الأبنية هو نتيجة مباشرة للجهاز الإداري المنوع والموسع للدولة العثمانية. وبأبي في المقدمة مجلس البلدية من ناحية الاعتبار، الذي يعد ذا أهمية فائقة في الإصلاحات المدنية. مع مجلس البلدية، الذي كان قائماً قبل ١٨٩٥ في مقره في النهاية الغربية من ساحة المرحلة، نشأ للمرة الأولى مختل يتبع تطور التخطيط المديني. وكمؤسسة متكاملة والمصالح المحلية على صعيد المدينة في اتخاذ القرار السياسي، فإن مجلس البلدية يتواءم وهذه الناحية، وتحقق تصورات السياسيين الممشقين المحليين حول دمشق حديثة فعلاً. وأخذت المهام - بشكل متزايد - التي كانت تعالج سابقاً في قصر الحكومة (السرايا) لوحدها، تستغل بوحديات إدارية ذاتية، وأصبح لها مبنى مستقل. وهكذا أمكن إنجاز التنوع الإداري في صورة المدينة أيضاً. مع تبني وحدات إدارية حديثة ونماذج عمرانية وتنظيم مدني من استنبول تطورت عملياً بتصورات ذاتية كاجوبة لمعالجات التحديث العالمية. فظهرت الفنادق مثلاً كطور لاحق لخان المدينة. فلم تستخدم للمبيت كالفنادق الأوروبية فقط، وإنما تكاملت، كبنائات فكرية أو مبنى العابد، مع الحواشيات والتأجير. بذلك اطلعت الفنادق المدمجة الكبرى في مستهل هذا القرن مهام تجارية أيضاً. علاوة على ذلك أوجدت مع المجلس الإداري المخالفة كمؤسسات للمشاركة السياسية وكذلك الأوصاف الجديدة من المقاهي والمسارح والساحات والحانات العامة، أماكن متطورة للتعبير العام.

وإذا ما شهدنا المؤسسات الجديدة الكثيرة على عصر جديد في دمشق، فإن كافة الأبنية المرفقة تقريباً ارتدت لباساً من صنف جديد. وهناك أشكال عمرانية جمولة حتى الآن لم تلحظ في صورة المدينة. تعد من

المركزية (صوفاء) التي لا تحقق الارتباط مع القاعات المجاورة فحسب، بل تستنخدم كقاعة سكنية مشتركة. وتتطابق تقنية البناء غالباً مع البيوت في دمشق. كذلك في الأناضول يوضع فوق الطليقة الأرضية (تضليك) هيكل عادة، ويوضع في فجواته المطارة لبن طيني بشكل مائل.

تقليدياً إن البيوت السكنية في دمشق منحة عن الشارع، أي أن فراغاتها مغلقة بسقوف منخفضة، وموزعة حول فناء داخلي مركزي. والواجهة المطلة على الشارع غير المقسمة في بنيتها إلى حد بعيد. والعمارة والحالية هي النوافذ من عكس واجهة الفناء المشكلة بواجهة في الداخل. كما تتميز البيوت الجديدة بشكل جلي عن سابقتها، حيث أصبحت تشكّل واجهات البيوت بانتظام، وصارت تأتق اعتباراً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر اهتماماً ملحوظاً، وتدرجت من خلال الشراوات والطوايق النوافذ بانتظام جلي. كذلك اختزعت النوافذ الواحات أيضاً. وغالباً ما كانت وظيفة البروز في الطابق الأول تقسم جانب الإطلالة بانتظام. وغالباً ما كان يتقدم الطابق الأول بشكل بشارز. فالبنت المسقوف بسطح جملوني بسيط الميل يطل بجلاء نحو الخارج. إن هذه السمة، التي لم تعرف حتى الآن في دمشق، وتلازم والكوناك الأناضولي. وكذلك في بناء الأشكال العثمانية المركزية.

الخاتمة

يشير التحليل الفني التاريخي للأبنية الموقّعة بجلاء إلى اسطنبول، عاصمة الدولة العثمانية كوسط للنماذج الحديثة. ظهرت تصاميم الأشكال العمرانية الاستنبولية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وفي بداية هذا القرن بشكل معاصر. ويمكن إثبات النظرية المكتسبة بطرائق تاريخ الفن حول عملية عمدة دمشق بالاعتماد على السور الذاتية لكثير من السادة المعمارين الدمشقيين، وكذلك من الناحية التاريخية الاجتماعية. فتأثرت دمشق، وبخاصة في نهاية القرن التاسع عشر، وإلى حد لم يعرف بهذا القياس من ذي قبل، بسياسة الإصلاح والمركزية الحكومية، وبالأشكال العمرانية الأناضولية المركزية. تصني عملية "العنة" هنا ليس التلقّي الأعمى للتصورات الاستنبولية، وإنما يصف المصطلح النمو المتميز لشؤون الدولة في إطار سياسة مركزية حكومية، والتي أدت إلى نفي السمة الحلية عمن التنظيم الاجتماعي في دمشق. فتفهم عملية العنة هنا كتوجه عام لتوحيد صيغ التعبير للمجتمعات ضمن الدولة العثمانية. وهذا يتطابق والطموحات الإصلاحية السياسية للدولة العثمانية، والتي شملت - وبخاصة - منذ إصلاحات الولايات ١٨٦٤ و ١٨٧١، سائر أنحاء البلاد ضمن إطار قانوني موحد. إن عنة الولايات وسكانها وكذلك مركزية البنى الإدارية هو الهدف الملئ لسياسة الإصلاح الحكومية.

بذلك أثرت المناطق البعيدة على المركز أيضاً. فالدمشقي عزت باشا العابد (١٨٥١-١٩٢٤) المحرك الأساسي لسكة الحجاز وإجراءات التحديث الأخرى والمتنازع للسياسة العثمانية المتأخرة، يكرس أن يذكر هنا كشأن فقط. إن الحملة الرئيسية للواء هذا التحديث في التركية المدينية الدمشقية هم العائلات الدمشقية إلى جانب الدولة. والتي يعود إليها القسم الأكبر من النسيج العمراني، وإذا كان تاريخ بناء المجموعات العمرانية المنفردة (مثلاً التاجر والدراس الحديثة)، وكذلك تدهشين الأبنية العامة تبعاً لموسميتها يجعل الدمشقيين يمتثلون مكانة الصدارة كعميلتين رئيسيتين لعملية التحديث، فإن عملية تحديث العاصمة السورية في مستهل القرن الحالي، هي نتيجة تحول ذاتي حضاري في ضوء عملية تحديث عالية.

شيفان فيهر

٣- البيوت

تتسلك البيوت بالمعنى العام المجموعة الأكبر من الإجراءات العمرانية الدمشقية زمن الإصلاح. وبسبب النمو السكاني الضخم جداً والنهوض الحضاري في مستهل القرن الحالي وبنية البيوت السكنية الدمشقية (خشب - ولبن)، فقد أمكن تمييز نشاطات عمرانية كثيرة غير مألوفة. ففي السنوات ما بين ١٨٨٨ و ١٩٠٠، ولحدها، وفقاً للتقويم السنوي لولاية سورية (سليمان) ارتفع عدد سكان دمشق من ١٢٠٥٥٧ نسمة إلى ١٤٣٣٢١ نسمة، أي ما يعادل ١٨.٩٪ في غضون ١٢ سنة فقط. وضمت المدينة في سنة ١٩٠٠ ما يزيد عن ١٦٨٣٢ بيتاً، منها ما بنى عن ألف ما زال قائماً. إن كافة البيوت تقريباً المدروسة والتي تزيد عن الأربعة عشر حتى الآن تعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر أو بداية القرن الحالي، وقد تعرضت إلى تغيير كبير. وتبعاً لك (سليمان) تم بناء في السنوات ١٨٩٥/٩٦ خمسة وسبعين بيتاً جديداً، وأعيد بناء ٩٢٤ بيتاً. ويلاحظ اعتباراً من خمسينيات القرن التاسع عشر تطور مماثل ملفت. وحلت محل المساند والدواوين المويلية، بينما تكامل الديكور المعماري بشكل متناسج مع الباروك العثماني. فهنا لم يتبدل الذوق في التأثيث الداخلي فحسب، بل اختلف أيضاً بناء البيت الدمشقي ذي الفناء. وتتجلى هذه الناحية بشكل جلي جداً في قاعات أو صالات السكن والاستقبال.

تقع القاعة التقليدية عادة مرتفعة عن الفناء الداخلي، ويدخل إليها من درج عبر الفناء. يشكل نطاق مدخل القاعة ما يسمى (العنة) المشكلة بنحى من الموزاييك المرمري، وفيها غالباً بحيرة وسطى وسقف عال. ومصاطب مميزة بأقواس مرتفعة كقواسم للقاعة، تتصل بالعمارة من جانب أو جانبيين أو من كافة الجوانب الثلاثة كمرحدات مرتفعة في القاعة (طزر). تجري دواوين ومساند، والصناديق كاثاث وحيد، ومقاعد واطقة ومنقل فجم. وخصصت للتخزين كتيبات وخزن حارية. لكن الصورة تغيرت اعتباراً من منتصف القرن التاسع عشر، فأصبحت تفضل الصالات المنظمة، التي لا تشكل اختلافاً بين العنة والطزر. وخصصت الصالة الواقعة على مستوى الفناء كقاعة مستطيلة مستوية لوضع الكراسي والطاولات والخزن، التي أخذت تسم بملامحها بشكل متزايد العمارة السكنية الدمشقية.

والخزن، التي أخذت تسم بملامحها بشكل متزايد العمارة السكنية الدمشقية. في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، اكتسبت بأشكال جديدة. وكانت تزين واجهات الأبنية وحدران الغرف حتى القرن الثامن عشر بجامات غنية الصنعة منفذة بتقنية المعجونة الملونة. لكن اعتباراً من خمسينيات القرن التاسع عشر اختفت هذه التقنية في الديكور الدمشقي النموذجي بشكل شبه كامل، واستعوض عنها بتقنية حفر الحجر على طراز الباروك. إن ظهور مفردات تشكيلية جديدة في البيوت السكنية هو وليد تحول اجتماعي. انعكس الانقلاب العظيم لزمن الإصلاح بشكل مناسب في الصورة الظاهرية للدمشقيين. فالبيوت أو البلباس هي تعبير عن عقلية عصر جديدة، وكرها بدهية جديدة. وليس الدليل على ذلك الطربوش لوحده كأشهر مثال على نظام جديد موحد عثماني في البلباس. كذلك فإن الديكور في البيوت السكنية أيضاً صيغة تعبيرية على النطاق الخاص للمواطن، تتحدث لغة جديدة. وزينت الأعلام العثمانية الملأل والنجمة وصور حدارية مستقاة من اسطنبول الكثير من أعمال التأثيث الداخلي. وكانت غالباً ترفق بصور السفن البخارية والسكك الحديدية وموز المرحلة الجديدة. وأقيمت البيوت السكنية في تلك السنوات تبعاً لعقلية عصر منشها.

في مناطق البناء الجديدة خارج المدينة القديمة، وداخل السور أيضاً، تكامل جزئياً طراز البيت العثماني (كوناك) مع العمارة السكنية الدمشقية. تميز الكوناك (البيوت السكنية القائمة) من خلال القاعة